المصدر: الاهـــــرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات التاريخ : ١٩٧٨/٩/٢٧

في الفن | في الحب | في الحياة

هل لأن السادات متقدم على عصره ؟

عدة تساؤلات تطرح نفسها على هذه الايام وتبحث عن اجابة ..

لماذا دول الرفض ؟ ورفض ماذا ؟ واين رصيد هذه الدول من العمل البناء لحل القضية العربية بالسلم او بالحرب حتى يكون لها حق الرفض لكل جهد تقوم به مصر في هذا السبيل ؟

ثم كيف يصدر الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان بيانا عن اطار اتفاقيتي السلام بكامب ديفيد يؤيد ويشرح ويفسر وفي نفس الوقت تجتمع دول الرفض لتستنكر وتثور وتتهم اتفاق كامب ديفيد بما هو بريء منه بداهة .. الامر الذي لا يمكن ان يفوت على رجل الشارع العادي الذي يستطيع ان يقرا ويكتب!

ثم لماذا يقف العالم المتحضر في امريكا واوروبا الى جانب جهود السادات من أجل السلام في حين تقف بعض دول المنطقة العربية ضد هذه الجهود وهي صاحبة المصلحة في السلام .. بل هي صاحبة المنطقة نفسها ؟

وسؤال آخر يحيرني .. كيف تدين بعض دول الرفض خطاب السادات التاريخي في القدس قبل ان تقراه ثم تعود فتمدحه وتشيد به بعد قراءته ؟

وسؤال اخير .. لا يطاوعني عقلي

على طرحه — رغم أنه يتردد على الكثير من الالسنة هنا — هل كل هذه الجمجمة التى تصدر من دول الرفض الهدف منها ان يهون كيان مصر ؟ هذه الرغبة اقل ما توصف به انها ساذجة فمصر كانت ومازالت تحمل مشعل الحضارة فى المنطقة .. هذا واقع تراه وتلمسه فى جميع مرافق حياتها دول الرفض بانذات قبل غيرها من الدول الاخرى بالمنطقة ..

كل هذه الاسئلة وغيرها تحمل من المتناقضات ما يحير العقل او على الاقل يدعو الى التأمل والتفكير ... ولكن هناك زاوية اخرى يمكن ان ننظر منها الى الموقف كله ..

نحن هنا فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية نعرف ان المصالح الشخصية لبعض الحكام العرب هى وراء تصرفاتهم .. بل واحيانا كثيرة وراء الخراب الذى قد حل وفى طريقه الى ان يحل بشعوب عربية كثيرة .. فسوريا مثلا .. بدلا من ان تحرر الجولان وجهت كل قواها العسكرية الى العدوان على لبنان .. أمر يدعو الى الدهشة والاشمئزاز . ولكن — كما يقولون — اذا عرف السبب بطل العجب — والسبب طبعا معروف لدى حكام سوريا ولدى الكثيرين غيرهم .. ولكن أيا كان السبب .. أو مهما تعددت الاسباب فهى لا تبرر ان اترك ارضى لغيرى يحتلها واعتدى على ارض الاخرين ..

فى ليبيا قصة القذافى معروفة .. فهدفه الوحيد فى الحياة ان يصبح زعيما لاى شعب .. فى مالطه .. فى ايرلندا .. او حتى فى سيبريا .. لا بأس فلكل انسان الحق فى نصيب من احلام اليقظة .. ولكن يبقى تساؤل .. ما علاقة هذا برفض القذافى لتحرير الارض ؟ والاجابة بسيطة للغاية .. فهو يرفض كل من يرفض زعامته هنا او هناك او فى اى مكان .. وقد نسى القذافى — أو لعله لا يدرك أن الزعامة .. مثل النجومية فى الفن .. لا تفرض ابدا .. لانها ثمرة العمل من أجل اسعاد الاخرين. كما قلت .. المصلحة الشخصية البحتة هى وراء سلوك اغلب حكام دول الرفض والامثلة على ذلك كثيرة وكلنا فى الواقع يعرفها .. ولكن هل تفسر او تبرر المصلحة الشخصية وحدها موقف دول الرفض من السادات ومصر ؟

لا اظن .. فالسبب اعمق بكثير من كل هذا ومع ذلك فهو بسيط كل البساطة :

كثيرا ما سألت نفسى وانا فى البلاد المتقدمة مثل دول اوروبا الغربية او امريكا لماذا يسموننا بلادا متخلفة — او بتعبير اكثر تهذيبا — بلادا نامية؟ هل المسألة مسألة اقتصادية .. أو عمرانية او تكنولوجية او حضارية وفى كل مرة كانت الاجابة بالنفى .. فليس الفقر تخلفا بدليل اننا عندما يتوفر لنا المال نصنع الكثير مما تصنعه الدول المتقدمة .. ومن الناحية العمرانية والتكنولوجية فنحن لا نقل مهارة عن اكثر البلاد تقدما اذا وجدت الوسائل للدراسة والتدريب .. والدليل ان علماءنا ينتشرون فى الارض شرقا وغربا واننا نتفوق على زملائنا من البلاد المتقدمة فى جامعاتهم نفسها .. وان جنودنا استطاعوا اتمام تدريبهم على الاسلحة السوفيتية المعقدة فى نصف او اقل من نصف الوقت المحدد .. وان مهندسينا وخبرائنا استطاعوا ان يقيموا مصانع الغزل والنسيج وان يشيدوا الكبارى والانفاق وغير ذلك من المنشآت الدقيقة المعقدة دون الحاجة الى خبرة اجنبية .. أما من الناحية الحضارية فالحضارة ليست القدرة على صنع الطائرات والثلاجات وغير ذلك من وسائل الراحة .. انها حكمة وسلوك

وكل من زار مصر من الاجانب يشهد ان جمالها فى شعبها الذى تنعكس جذوره الحضارية العميقة المتأصلة على سلوكه الفنى .. السمح المتفتح الذى يتسم بحب الانسان لاخيه الانسان أيا كان ...

فهيم التخلف اذن !

استغرق بحثي عن الفرق بين الدول المتخلفة والدول النامية قسطا كبيرا من حياتى كنت فيه دائم الملاحظة والتأمل والمقارنة .

واخيرا اهتديت ...

الشعوب المتخلفة تؤمن بالسحر والخرافات والشعوذة .. فاذا مرض احد الناس فيها لا يعنى بتشخيص المرض — حتى لو وجد الطبيب — بل يلجا الى الساحر او الساحرة لتلبسه حجابا يقيه عين الحسود .. واذا دهم المجتمع المتخلف خطر او واجهته مشكلة تجده يهرع الى الطبول يدقها والى حناجره يرفعها بالسكلام والمزيد من الكلام معتقدا انه بذلك قد تجنب الخطر وتغلب على المشكلة .. فتجاهل الواقع الملموس من ابرز سمات المجتمعات المتخلفة ..

فمن اهم واخطر ملامح التخلف تصديق كل ما يقال او يكتب ..

وكلنا يذكر كيف كنا نشطب اسم اسرائيل من الكتب والخرائط فى الوقت الذى كانت فيه اسرائيل تحتل ارضنا .. وكان العالم كله ينظر الينا ويضحك .. فقد كنا مثل النعامة التى تدفن راسها فى الرمال هروبا من الخطر ..

ولم تكن هذه رغبة المصريين او طبيعتهم ولكن كانت تسوقهم الشعارات .. وهى نوع من الشعوذة .. وتلتف حول اعناقهم الاشاعات فتخنقهم خنقا وتعمى بصائرهم ...

ولذلك صدقنا اسطورة اننا يوما ما سوف نرمى اسرائيل فى البحر ..فلما لم يحدث ذلك وعرفنا انه لن يحدث اكتفينا بأن نتمنى ان يحدث .. وبذلك لجأنا الى احلام اليقظة نعيشها يومنا وغدنا .

كل هذا فعله وما زال يفعله معظم حكام دول الرفض .. والسبب انهم متخلفون عن عصرهم .. فالتخلف معناه أن ترى الشىء — لا كما هو على حقيقته — بل كما تريد أن تراه ولكن دون ان تفعل شيئا ..

اما فى الدول المتقدمة فالانسان يبحث كل ما يقال للتعرف على حقيقته .. وهو ايضا يواجه الواقع ويغيره حسب المقتضيات ولا يترك نفسه فريسة للخرافات واحلام اليقظة .. ولذلك نجده ينظر الى الاشياء نظرة علمية موضوعية فاحصة .. ويتخير الوسيلة الملائمة للوصول الى الهدف المنشود لان هذا هو الفرق بين التخلف والتقدم . .

هاجم بعض حكام دول الرفض حرب اكتوبر حتى قبل ان تنتهى الحرب وتؤتى ثمارها .. وعندما حدث فض الاشتباك الاول ثم الثانى ثارت ثائرتهم وملأوا الدنيا كلاما فارغا جعل العالم المتحضر ينظر اليهم ساخرا مذهولا ...

وعندما قام السادات برحلته التاريخية الى القدس استنكروا خطابه أمام « الكنيست » قبل ان يقرأوه .. وعندما عاد من « كامب ديفيد » باطار لاتفاقية سلام لا يختلف على مضمونها ونحواها أى صبى يعرف القراءة والكتابة .. اجتمعوا وتاموا وتعددوا وثاروا واستنكروا وملأوا حناجرهم بالضجيج والصراخ ...

ولم استغرب .. فهم مازالوا يعيشون فى عصر بعيد كل البعد عن عصرنا ..ولكن السادات بنظرته العلمية للاشياء التى تواجه الواقع وتغيره يدفعهم دفعا الى الخروج من عصر الظلام هذا الى نور القرن العشرين .

وكل ما هو جديد .. وكل ماهو عقلانى .. وكل ماهو عملى وكل من هو متقدم على عصره فى نظر المتخلفين مرفوض .. ولو الى حين .